



مُلْتَقَى الدُّعَاءِ نِهَاةَ السَّنَةِ التَّاسِعِ عَشَرَ

بَعْنَوَان

حقيقة العقل وحُسن استعماله ومهمته في العدل بين الشهوات والغضب
والحُكم في المحسوسات الماديّة والغيبّات المعنوية وأثر كل ذلك على
اتجاه ووجهة الأفراد والجماعات والشعوب والدول

من الأربعاء ٢٩ ذي الحجة ١٤٤٦هـ إلى يوم الجمعة ٢ محرم ١٤٤٧هـ



المحور الثاني

العقل : (حقيقته ومكانته وضرورة استنارته بالوحي الإلهي)

الداعية الباحث محمد بن علي بن محمد الجفري

باحث ومحاضر في مؤسسة طابة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فقد شرف الله تعالى وكرم الإنسان بالإدراك والعقل، ورتب على هذه الخلقة الابتلاء والتكليف بحكمته تعالى البالغة، وامتن عليه بذلك مذكراً بهذه النعمة العظيمة في كتابه الكريم، ونصب الآيات الدالة على جلاله وصنعه ليهتدي بها الناظرون من أولي الأبواب والعقول.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾. سورة البقرة آية ١٦٤.

قَالَ تَعَالَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿الْمَرْثَلَكُ آيَاتِ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَبَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾

قال الفخر الرازي في تفسير آية البقرة المذكورة: "أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ فَإِنَّمَا خَصَّ الْآيَاتِ بِهِمْ لِأَنَّهُمُ الَّذِينَ يَتَمَكَّنُونَ مِنَ النَّظَرِ فِيهِ، وَالِاسْتِدْلَالِ بِهِ عَلَى مَا يَلْزَمُهُمْ مِنْ تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ وَعَدْلِهِ وَحُكْمِهِ لِيَقُومُوا بِشُكْرِهِ، وَمَا يَلْزَمُ عِبَادَتَهُ وَطَاعَتِهِ.

وَأَعْلَمَ أَنَّ النَّعْمَ عَلَى قِسْمَيْنِ نَعْمٌ دُنْيَوِيَّةٌ وَنَعْمٌ دِينِيَّةٌ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ الثَّمَانِيَةُ الَّتِي عَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى نَعْمٌ دُنْيَوِيَّةٌ فِي الظَّاهِرِ، فَإِذَا تَفَكَّرَ الْعَاقِلُ فِيهَا وَاسْتَدَلَّ بِهَا عَلَى مَعْرِفَةِ الصَّانِعِ صَارَتْ نَعْمًا دِينِيَّةً لَكِنَّ الْإِنْتِفَاعَ بِهَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا نَعْمٌ دُنْيَوِيَّةٌ لَا يَكْمُلُ إِلَّا عِنْدَ سَلَامَةِ الْحَوَاسِّ وَصِحَّةِ الْمَزَاجِ فَكَذَا الْإِنْتِفَاعُ بِهَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا نَعْمٌ دِينِيَّةٌ لَا يَكْمُلُ إِلَّا عِنْدَ سَلَامَةِ الْعُقُولِ وَانْفِتَاحِ بَصَرِ الْبَاطِنِ فَلِذَلِكَ قَالَ: لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ".

والآيات في الباب كثيرة معلومة، وورد في الباب من الأحاديث الدالة على فضل العقل والتفكير والثناء على أولي الألباب، من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فيما أخرجه مسلم وغيره: " ليلني منكم أولو الأحلام والنهي"، وثناؤه على أشج عبد القيس -وهو في صحيح مسلم كذلك- بقوله صلى الله عليه وسلم: " إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة"، والحلم هو العقل كما قال الإمام النووي رحمه الله تعالى.

مطلب: في حقيقة العقل:

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة:

"(عَقَلَ) الْعَيْنُ وَالْقَافُ وَاللَّامُ أَصْلٌ وَاحِدٌ مُنْقَاسٌ مُطَرَّدٌ، يَدُلُّ عُظُمُهُ عَلَى حُبْسَةٍ فِي الشَّيْءِ أَوْ مَا يُقَارِبُ الْحُبْسَةَ. مِنْ ذَلِكَ الْعَقْلُ، وَهُوَ الْحَابِسُ عَنْ ذَمِيمِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ.

قَالَ الْخَلِيلُ: الْعَقْلُ: نَقِيضُ الْجَهْلِ. يُقَالُ عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا، إِذَا عَرَفَ مَا كَانَ يَجْهَلُهُ قَبْلُ، أَوْ انْزَجَرَ عَمَّا كَانَ يَفْعَلُهُ. وَجَمَعَهُ عُقُولٌ. وَرَجُلٌ عَاقِلٌ وَقَوْمٌ عُقَلَاءُ. وَعَاقِلُونَ. وَرَجُلٌ عَقُولٌ، إِذَا كَانَ حَسَنَ الْفَهْمِ وَافِرَ الْعَقْلِ".

وقال ابن منظور في لسان العرب:

"عقل: العقلُ: الحِجْر والنَّهْيُ ضِدُّ الحُمُق، والجُمُعُ عُقُولٌ. وَفِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: تِلْكَ عُقُولٌ كَادَهَا بَارِئُهَا. أَي أَرَادَهَا بِسُوءٍ، عَقَلَ يَعْقِلُ عَقْلًا وَمَعْقُولًا، وَهُوَ مَصْدَرٌ؛ قَالَ سِيبَوَيْهِ: هُوَ صِفَةٌ، وَكَانَ يَقُولُ إِنَّ الْمَصْدَرَ لَا يَأْتِي عَلَى وَزْنِ مَفْعُولِ الْبَتَّةِ، وَيَتَأَوَّلُ الْمَعْقُولُ فَيَقُولُ: كَأَنَّهُ عَقَلَ لَهُ شَيْءٌ أَي حُبَسَ عَلَيْهِ عَقْلُهُ وَأُيِّدَ وَشُدِّدَ، قَالَ: وَيُسْتَغْنَى بِهَذَا عَنِ الْمَفْعَلِ الَّذِي يَكُونُ مَصْدَرًا؛ وَأَنشَدَ ابْنُ بَرِّي:

فَقَدْ أَفَادَتْ لَهُمْ حِلْمًا وَمَوْعِظَةً ... لِمَنْ يَكُونُ لَهُ إِرْبٌ وَمَعْقُول

وعَقَلَ، فَهُوَ عَاقِلٌ وَعُقُولٌ مِنْ قَوْمٍ عُقْلَاءَ. ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: رَجُلٌ عَاقِلٌ وَهُوَ الْجَامِعُ لِأَمْرِهِ وَرَأْيِهِ، مَاخُودٌ مِنْ عَقَلْتُ الْبَعِيرِ إِذَا جَمَعَتْ قَوَائِمَهُ، وَقِيلَ: الْعَاقِلُ الَّذِي يَحْبِسُ نَفْسَهُ وَيُرَدُّهَا عَنْ هَوَاهَا، أُخِذَ مِنْ قَوْلِهِمْ قَدْ اغْتَقَلَ لِسَانَهُ إِذَا حُبَسَ وَمُنِعَ الْكَلَامَ. وَالْمَعْقُولُ: مَا تَعَقَّلَهُ بِقَلْبِكَ. وَالْمَعْقُولُ: الْعَقْلُ، يُقَالُ: مَا لَهُ مَعْقُولٌ أَيْ عَقْلٌ، وَهُوَ أَحَدُ الْمَصَادِرِ الَّتِي جَاءَتْ عَلَى مَفْعُولٍ كَالْمَيْسُورِ وَالْمَعْسُورِ. وَعَاقَلَهُ فَعَقَلَهُ يَعْقِلُهُ بِالضَّمِّ: كَانَ أَعْقَلَ مِنْهُ. وَالْعَقْلُ: التَّثَبُّتُ فِي الْأُمُورِ. وَالْعَقْلُ: الْقَلْبُ، وَالْقَلْبُ الْعَقْلُ، وَسُمِّيَ الْعَقْلُ عَقْلًا لِأَنَّهُ يَعْقِلُ صَاحِبُهُ عَنِ التَّوَرُّطِ فِي الْمَهَالِكِ أَيْ يَحْبِسُهُ، وَقِيلَ: الْعَقْلُ هُوَ التَّمْيِيزُ الَّذِي بِهِ يَتَمَيَّزُ الْإِنْسَانُ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ، وَيُقَالُ: لِفُلَانٍ قَلْبٌ عَقُولٌ، وَلِسَانٌ سَوُولٌ، وَقَلْبٌ عَقُولٌ فَهِمٌ؛ وَعَقَلَ الشَّيْءَ يَعْقِلُهُ عَقْلًا: فَهِمَهُ. وَيُقَالُ أَعْقَلْتُ فُلَانًا أَيْ أَلْفَيْتُهُ عَاقِلًا. وَعَقَّلْتُهُ أَيْ صَيَّرْتُهُ عَاقِلًا. وَتَعَقَّلَ: تَكَلَّفَ الْعَقْلَ كَمَا يُقَالُ تَحَلَّمَ وَتَكَيَّسَ. وَتَعَاقَلَ: أَظْهَرَ أَنَّهُ عَاقِلٌ فَهِمٌ وَلَيْسَ بِذَلِكَ. وَفِي حَدِيثِ

الزُّبْرَقَانِ: أَحَبُّ صِبْيَانِنَا إِلَيْنَا الْأَبْلَهُ الْعُقُول. قَالَ ابْنُ الْأَثِير: هُوَ الَّذِي يُظَنُّ بِهِ الْحُمَقُ فَإِذَا فُتِّشَ وَجِدَ عَاقِلًا، وَالْعُقُولُ فَعُولٌ مِنْهُ لِلْمُبَالَغَةِ...".

قال في القاموس المحيط، وأحسن في جمعه واختصاره:

"العَقْلُ: الْعِلْمُ، أَوْ بِصِفَاتِ الْأَشْيَاءِ، مِنْ حُسْنِهَا وَقُبْحِهَا، وَكَمَالِهَا وَنُقْصَانِهَا، أَوْ الْعِلْمُ بِخَيْرِ الْخَيْرَيْنِ، وَشَرِّ الشَّرَّيْنِ، أَوْ مُطْلَقٌ لِأُمُورٍ، أَوْ لِقُوَّةٍ بِهَا يَكُونُ التَّمْيِيزُ بَيْنَ الْقُبْحِ وَالْحُسْنِ، وَلِمَعَانٍ مُجْتَمِعَةٍ فِي الذَّهْنِ. يَكُونُ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَتِبُّ بِهَا الْأَغْرَاضُ وَالْمَصَالِحُ، وَلِهَيْئَةٍ مَحْمُودَةٍ لِلْإِنْسَانِ فِي حَرَكَاتِهِ وَكَلَامِهِ. وَالْحَقُّ أَنَّهُ نَوْرٌ رُوحَانِيٌّ، بِهِ تُدْرِكُ النَفْسُ الْعُلُومَ الضَّرُورِيَّةَ وَالنَّظَرِيَّةَ...".

وأما اصطلاحاً فالعقل له تعريفات كثيرة تفوت الحصر، ومما ينبغي الالتفات إليه أن هذا اللفظ يطلق على معانٍ متباينة حتى إنه مشترك لفظي باعتبار الفنون والاصطلاحات المختلفة، فمثلاً إطلاق الفلاسفة العقل على الجواهر المجردة وتقسيمهم لها بعيد عما نحن بصدد من المعنى المقصود في هذه الورقة، بل نجد اللقاني في جوهرة التوحيد يشبه العقل بالروح في اختلافهم في حقيقتها ومعرفتها، قال:

وَالْعَقْلُ كَالرُّوحِ وَلَكِنْ قَرُّوا ... فِيهِ خِلَافًا فَانْظُرْ مَا فَسَّرُوا

والذي يمكن أن نوطئ به في ورقتنا هذه هو اختيار التعريف الأشهر في متون وشروح العلوم الشرعية، فأحسن ما قيل فيه: غريزة يتهياً بها لدرك العلوم النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب، أو: نور روحاني تدرك به العلوم الضرورية والنظرية عند سلامة الآلات.

قال العلامة البيجوري في حاشية جوهرة التوحيد:

" قوله: (والعقل كالروح) مبتدأ وخبر: أي والعقل مثل الروح من حيث الخوض في بيان الحقيقة والوقف عن ذلك. واختلف كلام المصنف في الترجيح: فرجح في ((هداية المريد)) طريق الخوض، ورجح في ((الكبير)) طريق الوقف، وهو المختار لأنه من المغيبات وكل ما هو كذلك، فالأولى الكف عن الخوض فيه، وهو لغة: المنع من عقل البعير إذا منعه بالعقال، وسمي بذلك لمنعه صاحبه من العدول عن سواء السبيل.

واعلم أن العقل على خمسة أنواع:

الأول: غريزي، وهو غريزة يتهيأ بها لدرك العلوم النظرية كما قاله شيخ الإسلام.

والثاني: كسبي، وهو ما يكتسبه الإنسان من معايشة العقلاء.

والثالث: عطائي، وهو ما يعطيه الله للمؤمنين ليهتدوا به إلى الإيمان.

والرابع: عقل الزهاد، وهو الذي يكون به الزهد.

والخامس: شرفي، وهو عقل نبينا صلى الله عليه وسلم لأنه أشرف العقول. وقد اختلف في تفضيل العقل على العلم أو العكس، والراجح تفضيل العلم على العقل، لأن العلم من صفاته تعالى. وما يروى في فضل العقل فهو موضوع لا أصل له كما صرح به الجلال السيوطي.

قوله: (ولكن قرروا فيه خلافا) أي لكن قرر العلماء في العقل خلافا، ولا محل لهذا الاستدراك، لأنهم قرروا في الروح خلافا أيضا، فلعل ((لكن)) لمجرد التأكيد، ثم رأيت المصنف في شرحه قال: ((ولكن ... إلخ)) استدراك على طريقة الخائضين، فأشار إلى أنهم لم يتفقوا على حقيقة معينة، بل اختلفوا في بيانها اهـ.

فالاستدراك يشعر بانتشار الخلاف وكثرته.

وقوله: (فانظروا ما فسروا) أي فانظر التفاسير التي ذكرها القوم في كتبهم لا في هذه المقدمة لصغر حجمها، وأقوال أهل السنة متطابقة على عرضيته، فبعضهم قال: إنه من قبيل العلوم، وعرفه بأنه العلم ببعض العلوم الضرورية كالعلم بوجوب تحيز الجرم، واستحالة عروّه عن الحركة والسكون، وجواز إحراق النار وغير ذلك، وهذا القول لإمام الحرمين وجماعة، وبعضهم قال: إنه ليس من قبيل العلوم، وعرفه بأنه غريزة أي طبيعة مغروزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات.

وعرفه الشيرازي بأنه صفة يميز بها بين الحسن والقبيح.

وأحسن ما قيل فيه: أنه نور روحاني به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية.

وقال بعضهم: إن هناك لطيفة ربانية لا يعلمها إلا الله تعالى، فمن حيث تفكرها تسمى عقلا، ومن حيث حياة الجسد بها تسمى روحا، ومن حيث شهوتها تسمى نفسا فالثلاثة متحدة بالذات مختلفة بالاعتبار".

على أنه قد رجح ابن حجر في التحفة أنه أفضل من العلم، فإنه قال:

" وَقَدْ بَيَّنَّتْ خُلَاصَةً مَا لِلْعُلَمَاءِ فِي تَعْرِيفِ الْعَقْلِ وَتَوَابِعِهِ فِي شَرْحِ الْعُبَابِ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّهُ مَنبَعُهُ وَأُسُّهُ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ يَجْرِي مِنْهُ مَجْرَى النُّورِ مِنَ الشَّمْسِ وَالرُّؤْيَا مِنَ الْعَيْنِ وَمَنْ عَكَسَ أَرَادَ مِنْ حَيْثُ اسْتَلْزَمَهُ لَهُ، وَأَنَّهُ تَعَالَى يُوصَفُ بِهِ لَا بِالْعَقْلِ".

وأما الحكم على جميع ما روي في فضله بأنه موضوع فغير صحيح، نعم هو حكم أغلبي، لكن روي فيه ما إسناده جيد، وقد ختم الحافظ الزبيدي شرحه على كتاب العلم من إحياء علوم الدين بتعقب الحافظ العراقي في تضعيفه لأحاديث العقل التي أوردها حجة الإسلام الغزالي، قال في إتحاف السادة المتقين ١ / ٤٧٤ :

"قال الزين العراقي: وهذه الأحاديث التي ذكرها المصنف في العقل كلها ضعيفة، وتعبير المصنف في بعضها بصيغة الجزم مما ينكر عليه، وبالجملية فقد قال غير واحد من الحفاظ: إنه لا يصح في العقل حديث، ذكره عمر بن بدر الموصلي ١ في كتاب له سماه المغني عن الحفظ والكتاب بقولهم لم يصح شيء

^١ قال في الجواهر المضية في تراجم الحنفية: العمر بن بدر بن سعيد بن مُحَمَّد بن تنكير الموصلي ضياء الدين أَبُو حَفْص قَالَ الْحَافِظُ جَمَالُ الدِّينِ أَبُو الْمُحَاسَنِ يُوسُفُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ الدَّمَشْقِيِّ وَلَدَ شَيْخَنَا الْإِمَامَ الْعَالِمَ الْفَقِيهَ الْحَافِظَ ضِيَاءَ الدِّينِ أَبُو حَفْصٍ عَمْرُ بْنُ بَدْرٍ فِي جُمَادِي الْآخِرَةِ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَةٍ وَتُوفِيَ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ بِدِمَشْقَ بِالْبَهْرَسْتَانِ النَّوْرِيِّ وَلَهُ عِدَّةُ مَصْنُفَاتٍ فِي عُلُومِ الْحَدِيثِ وَغَيْرِهِ وَسَمِعْتُ عَلَيْهِ جُزْءَ الْحُسْنِ بْنِ عَرَفَةَ وَاجْتَمَعَتْ مَعَهُ بِالْمَوْصِلِ وَفِي دِمَشْقَ وَكَانَ حَسَنَ الصَّمْتِ طِيبَ الْمَحَاضِرَةِ مُشْتَغَلًا بِهَا هُوَ مِنْ تَصْنِيفٍ أَوْ تَأْلِيفٍ أَوْ عِبَادَةٍ حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ كَذَا وَجَدْتُهُ يَخْطُ الْإِمَامَ أَمِينَ الدِّينِ أَبِي مُحَمَّدَ عَبْدِ الْقَادِرِ بْنِ مُحَمَّدَ بْنِ أَبِي الْحُسَيْنِ الصَّبْغِيِّ سَمِعَ مِنْهُ الْحَافِظُ رَشِيدُ الدِّينِ الْعَطَّارُ قَالَ لَقِيتُهُ بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَكَانَ يَتَوَلَّى التَّدْرِيسَ فِي مَدْرَسَةِ هُنَاكَ

في هذا الباب ٢، وبعض ما ذكره فيه منتقض، وقد ورد في العقل أحاديث صححها بعض الأئمة، والله أعلم".

وقد تكلم الحجة الغزالي عن العقل في كتابه العظيم الماتع إحياء علوم الدين، وعقد فصلاً في بيان حقيقته، فقال:

"بيان حقيقة العقل وأقسامه:

اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقاً على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم.

والحق الكاشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان كما يطلق اسم العين مثلاً على معان عدة وما يجري هذا المجرى فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حد واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه.

فالأول: الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل إنه غريزة يتهياً بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية فإن الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود

للحنفية وذكر لي أنه صنف في علم الحديث كتباً منها العقيدة الصحيحة في الموضوعات الصريحة واستنباط المعين من العلل والتاريخ لابن معين وغير ذلك أخبرني شيخنا أبو إسحاق إبراهيم بن الطاهري وغيره عن الحافظ رشيد الدين عنه.

^٢ مطبوع في مصر بعناية وتعليق الشيخ العلامة محمد الخضر حسين التونسي، شيخ الأزهر، رحمه الله ورفع درجاته.

هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم وكما أن الحياة غريزة بها يتهياً الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية فكذلك العقل غريزة بها تتهياً بعض الحيوانات للعلوم النظرية ولو جاز أن يسوى بين الإنسان والجمار في الغريزة والإدراكات الحسية

فيقال لا فرق بينهما إلا أن الله تعالى بحكم إجراء العادة يخلق في الإنسان علوماً وليس يخلقها في الجمار والبهايم لجاز أن يسوي بين الجمار والجماد في الحياة ويقال لا فرق ألا إن الله عز وجل يخلق في الجمار حركات مخصوصة بحكم إجراء العادة .

فإنه لو قدر الجمار جماداً ميتاً لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالله سبحانه وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد وكما وجب أن يقال لم يكن مفارقتها للجماد في الحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة فكذا مفارقة الإنسان البهيمية في إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل وهو كالمرآة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهي الصقالة .

وكذلك العين تفارق الجبهة في صفات وهيئات بها استعدت للرؤية فنسبة هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة العين إلى الرؤية ونسبة القرآن والشرع إلى هذه الغريزة في سياقها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر فهكذا ينبغي أن تفهم هذه الغريزة .

الثاني: هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات

واستحالة المستحيلات وهو أيضاً صحيح في نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلاً ظاهر وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال لا موجود إلا هذه العلوم

الثالث: علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فإن من حنكته التجارب وهذبتة المذاهب يقال إنه عاقل في العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غمر جاهل فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً.

الرابع: أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سمى صاحبها عاقلاً من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة وهذه أيضاً من خواص الإنسان التي بها يتميز عن سائر الحيوان.

فالأول: هو الأس والسنخ والمنبع.

والثاني: هو الفرع الأقرب إليه.

والثالث: فرع الأول والثاني إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب.

والرابع: هو الثمرة الأخيرة وهو الغاية القصوى، فالأولان بالطبع والأخيران بالاكْتِسَاب.

ولذلك قال علي كرم الله وجهه:

رأيت العقل عقليْن ** فمطبوع ومسموع

ولا ينفع مسموع ** إذا لم يك مطبوع

كما لا تنفع الشمس ** وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم ما خلق الله عز وجل خلقاً أكرم عليه من العقل، والآخر هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم إذا تقرب الناس بآبواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بعقلك^٣.

وقد حقق الحارث المحاسبي في رسالته مائة العقل ومعناه واختلاف الناس فيه، بعض إطلاقاتهم في هذا الباب، ومن أسهم كذلك في هذا الحكيم الترمذي في رسالة بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب.

وهذان نموذجان لدراسات مبكرة في التراث الإسلامي تتعلق بهذا الباب، ومن حق الباحثين وطلبة العلم الاهتمام والعناية بالاطلاع عليهما وما جرى مجراهما من كلام المحققين والعارفين والنظار.

مطلب: مكانة العقل في أصل الدين؛

العقل مناط التكليف، وجاء في ذلك النصوص الكثيرة، ومن أصرحها حديث رفع القلم عن ثلاث، فكلّ منهم نقص من تمييزه وعقله ما منع تعلق الخطاب به، الصغر والنوم والجنون.

^٣ قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء: «حديث ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة.

حديث إذا تقرب الناس بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث علي إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكسب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفة والقرب وإسناده ضعيف".

ولذلك قد شرطوا في المكلف: البلوغ والعقل وبلوغ الدعوة وسلامة الحواس.

وبينوا أن تكليف الغافل محال، لأنه ليس أهلاً للخطاب، فمطالبته بالامتثال حال غفلته تناقض، كأنه يقال له افعل امتثالاً حال كونك غير ممثّل!

وفرقوا بين مسألة تكليف الغافل وسموه التكليف المحال حيث رجعت الاستحالة لنفس المخاطب، وبين التكليف بالمحال حيث رجعت الاستحالة للفعل المخاطب به.

وقد اعتنى العلماء المسلمون بجملة من المسائل التي تنبني عليها الشريعة وتكون مقدمات لقبول الدين والإذعان له، ولنضرب أمثلة منها تبين مكانة العقل في أصول الدين.

مسألة الحكم العقلي.

معرفة الأحكام العقلية أي وجوب الواجبات وجواز الممكنات وامتناع المستحيلات من المطالب التي اعتنى بها في الدرس الكلامي ومقررات مناهج العلوم الشرعية، وعد بعض أكابر المتكلمين هذه العلوم هي العقل، وأن من لا معرفة له بها فليس من جملة العقلاء.

قال السنوسي في شرح أم البراهين بعد ذكر أقسام الحكم العقلي الثلاثة:

"واعلم أن معرفة هذه الأقسام الثلاثة وتكريرها تأنيس للقلب بأمثلتها حتى لا يحتاج الفكر في استحضار معانيها إلى كُلفةٍ أصلاً مما هو ضروري على كل عاقل يريد أن يفوز بمعرفة الله تعالى

ورسله عليهم الصلاة والسلام، بل قد قال إمام الحرمين وجماعة إنَّ معرفة هذه الأقسام الثلاثة هي نفس العقل، فمن لم يعرف معانيها فليس بعاقل. والله الموفق".

١- أسباب العلم:

ويجعلونها ثلاثة: الحس والعقل والخبر، فالعقل من أسباب العلم عند عامة الخلق. وذكرهم لهذا المبحث في مقدمات الكتب الكلامية لما أن طريقة المتكلمين هي النظر في العالم والاستدلال به على وجود الصانع تبارك وتعالى.

فكان من المهمات البحث عن طرق العلم وأسباب المعرفة، ورد الشبه والتشكيكات الواردة على هذه المطالب.

قال أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي في كتابه القانون ص ٣٢٠:

"قد مرت الإشارة إلى أن العقل هو سبب العلم وآلته، بحيث لا عقل كما في الجمادات والحيوانات العجماوات لا علم، وكذا حيث لم يكمل كالصبيان، أو عرضت له آفة كالمجنون والنائم والسكران ونحوهم، لامتناع وجود الموقوف دون الموقوف عليه، ثم كون العقل آلة لمطلق العلم وموقوف عليه مبني على أنه ليس بعض العلوم على ما مر، وإلا فالأمر إضافي، وهو أيضا عقلي بناء على أن استلزام الدليل للنتيجة عقلي، وإلا فالتوقف عادي، لظهور أن شرط الإدراك مطلقا الحياة لا غير".

مسألة هل وجوب المعرفة عقلي أو شرعي؟

والخلاف في هذا بين أهل السنة القائلين بأن الأحكام ومنها وجوب المعرفة ثابتة بالشرع لا بمجرد العقل، وبين المعتزلة الذين يقولون بأن العقل كافٍ في هذه المطالب.

والمسألة واسعة وفيها كلام طويل عند علماء أصول الدين والمتكلمين.

واتفقوا على أن العقل شرط لوجوب المعرفة وسببها، لكن محل الخلاف هل يكفي العقل في تحقق الوجوب قبل بلوغ الدعوة ووصول الخبر بحيث تحصل المؤاخذه قبل البعثة أو لا.

وهذه من المسائل والمطالب التي يتضح فيها جمع أئمة أهل السنة بين العقل والنقل، ويتحقق فيها قول الحجة الغزالي في مقدمة الاقتصاد في الاعتقاد:

"وأنى يستتب الرشاد لمن يقنع بتقليد الأثر والخبر، وينكر مناهج البحث والنظر، أو لا يعلم انه لا مستند للشرع إلا قول سيد البشر صلى الله عليه وسلم، وبرهان العقل هو الذي عرف به صدقه فيما أخبر، وكيف يهتدي للصواب من اقتفى محض العقل واقتصر، وما استضاء بنور الشرع ولا استبصر؟ فليت شعري كيف يفزع إلى العقل من حيث يعتريه العي والحصر؟ أو لا يعلم أن العقل قاصر وأن مجاله ضيق منحصر؟ هيهات قد خاب على القطع والبتات وتعثر بأذيال الضلالات من لم يجمع بتأليف الشرع والعقل هذا الشتات. فمثال العقل البصر السليم عن الآفات والأدواء، ومثال القرآن الشمس المنتشرة الضياء، فأخلق بأن يكون طالب الاهتداء. المستغني إذا استغني بأحدهما عن الآخر في غمار الأغبياء، فالمعرض عن العقل مكتفياً بنور القرآن، مثاله المعرض لنور الشمس مغمضاً للأجفان، فلا فرق بينه وبين العميان. فالعقل مع الشرع نور على نور، والملاحظ بالعين العوراء لأحدهما على الخصوص متدل

بحبل غرور، وسيتضح لك أيها المشوف إلى الاطلاع على قواعد عقائد أهل السنة، المقترح تحقيقها بقواطع الأدلة، أنه لم يستأثر بالتوفيق للجمع بين الشرع والتحقيق فريق سوى هذا الفريق. فاشكر الله تعالى على اقتفائك لآثارهم وانخراطك في سلك نظامهم وعيارهم واختلاطك بفرقتهم؛ فعساك أن تحشر يوم القيامة في زمريهم. نسأل الله تعالى أن يصفى أسرارنا عن كدورات الضلال، ويغمرها بنور الحقيقة، وأن يخرس ألسنتنا عن النطق بالباطل، وينطقها بالحق والحكمة إنه الكريم الفاضل المنه الواسع الرحمة".

مطلب: مكانة العقل في فهم الدين

كما أن العقل هو من شروط التكليف ومباحثه من مقدمات أصول الدين، بل عندنا من المطالب ما يتوقف ثبوت الشرع عليه، وهي مطالب العمدة فيها على استدلال العقل فإنه كذلك مبنى شطر الأحكام الدينية، وذلك لأن الأحكام الشرعية لا تثبت إلا بدليل، والدليل إما النص وإما معقول النص. ولذلك اعتنى الأصوليون بأبواب القياس والاستدلال، وهي أبواب مبناها على النظر العقلي. وفيها تتجلى القواعد التي يتوصل بها إلى الأحكام الشرعية.

فالقياس الشرعي هو ما يسميه المنطقيون قياس التمثيل، وهو الاستدلال بجزئي على جزئي لوجود علة جامعة بينهما.

ومن القواعد المهمة في فهم الشريعة اتفاق الفقهاء على مراعاة الدين للمصالح إما وجوباً كما يقوله المعتزلة وإما تفضلاً وإحساناً كما أثبتته أهل السنة والجماعة، وبناء على هذا الاطراد في العلل والحكم التي

راعتها الأحكام الفرعية انبنى القياس واستتب للعقل التصرف في الاستنباط كما بينه الإمام الغزالي في رسالته أساس القياس.

ولعظم مكانة العقل صار حفظه من الضروريات الخمس التي جاءت الشرائع بها.

مطلب: حاجة العقل إلى الاستبصار بنور الشرع

العقل في تصرفه وطلبه لمعرفة المجهولات قاصر عن إدراك حقائق السعادة ما لم يهتد بنور الشرع والوحي، ومثاله الذي قدمناه عن الحجة الغزالي يبين هذا المعنى.

وذلك أن كثيراً من المطالب التي يتصرف فيها قد تعرض له فيها الشبه والأغاليط، وتدخل عليه مقدمات كاذبة يضل بها عن سلوك سبيل السعادة.

حتى المعتزلة الذين حكّموا العقل أقروا بأنه لا يستقل بمعرفة المصالح والمفاسد التي تشتمل عليها بعض الأفعال، كحسن صوم يوم الثلاثين من رمضان وقبح صوم أول يوم من شوال، وأنه مفتقر في ذلك لبيان الشرع.

وقد فصل الطاهر بن عاشور في كتابه أصول النظام الاجتماعي في الإسلام جانباً مهماً من سداد العقول المستهدية بالوحي لما بين أن الإسلام جاء بالحقائق لا الأوهام، بخلاف الأديان الباطلة التي عمدتها الأوهام والخيالات.

وأن الأحكام التي جاء بها الإسلام مبناها على الحقائق والاعتباريات الصحيحة التي يتوصل بها إلى إيفاء الحقائق التي يتعذر الوفاء بها استقلالاً.

ويتجلى ذلك في العقائد والعبادات والمعاملات والمعارف والإدراكات.

ومن ههنا كان للمناطق المسلمة إسهاماتهم الجليلة حتى فيما يتعلق بالبحث المنطقي العقلي حيث جردوه عن جملة المقدمات الفلسفية الباطلة التي تعتمد على عقائد وأوهام ليس لها ثبوت.

فكان هذا من الآثار الشاهدة على حاجة العقول إلى الهداية والاستضاءة بنور الوحي.

وللإمام الغزالي كتابان مهمان في هذا الباب أحدهما معيار العلم والثاني ميزان العمل، وكلاهما يركز على أن غاية الإنسان الكبرى هو الفوز بالسعادة، وأن السبيل إليها يكون بإدراك كماله الخاص به وسبيله تكميل القوة العقلية وإدراك الحقائق والعمل على وفق ذلك.

وفي ميزان العمل يقول ص ٦٦: " الكمال الخاص بالإنسان هو إدراك حقائق العقليات على ما هي عليه".

ويقول عن الإنسان ص ٨٢: "وإنما خاصيته التي لأجلها خلق قوة العقل ودرك حقائق الأشياء".

ولما كانت المعارف الصوفية ذروة العلوم الدينية ويتصل بعضها بأسرار الكتاب والسنة وتتسع لعلوم المعاملة وعلوم المكاشفة، كان الالتفات لكلام أئمة الصوفية عن العقل من الأهمية بالمكان العالي، ويمكن أن يكون بحث العقل من المداخل المفيدة فيما دعا إليه شيخنا الحبيب علي الجفري في ملتقيات

سابقة من الاستفادة من القواعد الكلامية والفلسفية والحقائق العرفانية الصوفية، والجمع والتوفيق فيما بينها، ويمكن أن يستأنس بتقديم مدخل العقل في هذا بما رواه أبو نعيم في الحلية عن ذي النون المصري، قال إسحاق بن إبراهيم الخواص: سَمِعْتُ ذَا النُّونِ يَقُولُ: مَنْ أَدْرَكَ طَرِيقَ الْآخِرَةِ فَلْيُكْثِرْ مَسْأَلَةَ الْحُكَمَاءِ وَمَشَاوَرَتَهُمْ، وَلَكِنْ أَوَّلُ شَيْءٍ يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَقْلُ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ لَا تُدْرَكُ إِلَّا بِالْعَقْلِ، وَمَتَى أَرَدْتَ الْخِدْمَةَ لِلَّهِ فَاعْقِلْ لِمَ تَخْدُمُ ثُمَّ اخْدَمْ.

وليس ذلك بدعاً من القول بل في جهود حجة الإسلام الغزالي ما يمكن أن يتخذ مبدأً لهذا النمط من الدراسات والأبحاث، ولحق من بعد الجامي والكوراني وشاه ولي الله الدهلوي وغيرهم من أئمة الدين وأهل التحقيق علماً وعملاً وذوقاً، رحمهم الله ورفع درجاتهم.

يقول حجة الإسلام الغزالي في ميزان العمل:

"وأما النفس الإنسانية من حيث إنها إنسانية.. فتنقسم قواها إلى قوة عالمة، وإلى قوة عاملة.

وقد يسمى كل واحد منهما عقلاً، ولكن على سبيل الاسم المشترك، إذ العاملة سميت عقلاً لكونها خادمة للعالمة مؤتمرة لها فيما ترسم.

فأما العاملة فهي قوة ومعنى للنفس هو مبدأ لحركة بدن الإنسان إلى الأفعال المعينة الجزئية المختصة بالفكر والروية على ما تقتضيه مصلحتها، وهذه القوة هي التي ينبغي أن تتسلط على سائر قوى البدن، وتسلطها ينبغي أن يكون على ما تقتضيه القوة العاملة النظرية التي سنذكرها، وينبغي أن يكون سائر

قوى البدن مقموعة مغلوبة دون هذه القوة العملية بحيث لا تنفعل هذه القوة عنها، وتلك القوى كلها تسكن وتتحرك بحسب تأديب هذه القوة وإشارتها.

فإن صارت مقهورة .. حدث فيها هيئات انقيادية للشهوات تسمى تلك الهيئات أخلاقاً رديئة.

وإذا كانت متسلطة .. حصلت لها هيئات استيلائية تسمى فضيلة وخلقاً حسناً".

ومن هذا التقرير وغيره يتبين لنا بعض جهات اتصال الفضائل الخلقية وأضدادها بقوة العقل المعبر به عن تلك القوة العملية، ولذلك نجد أن الحجة الغزالي في تقويم الأخلاق وباب التخلية والتحلية غالباً ما يشير إلى معجون العلم والعمل، وكلاهما راجع للعقل بمراتبه وإطلاقاته التي قدمنا بعضها.

ولا ينبغي أن يشتبه على الباحث ههنا في الجمع بين كلام أهل التصوف وعلماء الكلام والفلاسفة أن العبارات التي فيها ذم للعقل لها محمل صحيح، بينه الحجة الغزالي في إحياء علوم الدين ١ / ٣٢٥، قال:

«فإن قلت: فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمعقول؟

فاعلم: أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة الكلام، فلم يقدروا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية، إذ كان لا ينمحي عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب فذموا العقل والمعقول وهو المسمى به عندهم.

فأما نور البصيرة التي بها يعرف الله تعالى ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وقد أثنى الله تعالى عليه؟! وإن ذم فما الذي بعده يحمده؟!!

فإن كان المحمود هو الشرع، فبم علم صحة الشرع؟ فإن علم بالعقل المذموم الذي لا يوثق به فيكون الشرع أيضاً مذموماً!

ولا يلتفت إلى من يقول إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل، فإننا نريد بالعقل ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان! وهي الصفة الباطنة التي يتميز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور. وأكثر هذه التخييلات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخبطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ فهذا القدر كاف في بيان العقل والله أعلم".

بل لقد توسع أهل التصوف في الكلام على العقل وبيان مراتبه، فمن أمثلة ذلك نص شريف يحسن جعله خاتمة هذه الورقة البحثية، لما أنه نموذج للمعارف العالية التي عند أرباب التصوف والمعرفة بالله تعالى من العلماء المحققين، وهو الفصل الذي كتبه الحكيم الترمذي في رسالة بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب، وعقده للكلام عن اللب، قال فيه ص: ٥٥

"واللب هو الجبل الأعظم والمقام الأسلم، وهو كالقطب لا يزول ولا يتحرك وبه قوام الدين. والأنوار كلها راجعة إليه حافة حوله، ولا تتم هذه الأنوار ولا ينفذ سلطانها إلا بصلاح اللب وقوامه، ولا تثبت هذه الأنوار إلا بثبوتها ولا توجد إلا بوجوده.

وهو معدن نور التوحيد، ونور مشاهدة التفريد، وبه يصح من العبد حقيقة التجريد وضياء التمجيد.

وإن هذا اللب نور مقرون، وزرع مغروس، وعقل مطبوع، ليس كالمركبات في النفس التي هي داخلة، إنما هو نور مبسوط كالأشياء الأصلية.

وهذا اللب الذي هو العقل مغروس في أرض التوحيد، ترابها نور التفريد، سقي من ماء اللطف من بحر التمجيد حتى امتلأ عروقه من أنوار اليقين، وتولى الله غرسه وباشر ذلك بقدرته من غير واسطة، فغرسه في جنة الرضى، ثم عصم هذه البحور بسور الصون، وأرساه في أزليته وأبديته وأوليته حتى لا تكاد تقترب منه بهيمة النفس بشهواتها أو بجهلها أو سباع مفاوز الضلالة أو شيء من الدواب التي هي طبائع النفس مثل كبرها وحمقها وآفاتها.

والرب جل جلاله صاحب هذا البستان ووليه الذي هو أزين من جميع الجنان، لأنه بستان الإيمان، تولى الله غرسه وسقيه وتربيته حتى أثمر الشجر نور الإيمان بتوفيق الرحمن ولطائف ثمرات الإحسان. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلِيمٌ وَزِينَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

ثم قال: "واعلم أن اللب لا يكون إلا لأهل الإيمان، الذين هم من خاصة عباد الرحمن، الذين أقبلوا إلى طاعة المولى، وأعرضوا عن النفس والدنيا، فألبسهم لباس التقوى، وصرف عنهم أنواع الابتلاء، فسماهم الله أولي الألباب، وخصهم بالخطاب، وعاتبهم بأنواع العتاب، ومدحهم في كثير من الكتاب،

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْآلَبِ﴾، وقال: ((وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ))، وقال: ((أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدَوْهُ))، وقال: ((وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ))، وقال: ((وَلْيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلْيَذَّكَّرْ أُولُو الْأَلْبَابِ)) وقال: ((لِيَذَّبَرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرْ أُولُو الْأَلْبَابِ)).

فمدح الله تعالى أولي الألباب وبين مراتبهم وسرائرهم مع ربهم، وفضائلهم في فقههم وفهمهم وحلمهم، حتى أعجز أمثالنا عن إدراك أحوالهم، لأنه خصهم بنور اللب ما لم يفعل ذلك بغيرهم.

وأما عند عامة أهل الأدب ومن لهم معرفة بشيء من اللغة فإن اللب هو العقل. ولكن بينهما فرق كما بين نور الشمس ونور السراج، فكلاهما نور، وهذا شيء ظاهر، لأنك لا تكاد ترى عاقلين يستوي سلطان عقليهما ونورهما، بل يتفاضل أحدهما على الآخر بزيادة خص هذا العقل بها ما لم يبين ذلك في الآخر، فما ظنك بمن خصه الله تعالى بمعرفته وأكرمه بلطائف بره وأفاض عليه من بحار خيره ما لم يفيض منها على غيره".

ثم انتهى بعد بيانه أنواع العقول بحسب ما اعتبره من أقسام إلى أن يذكر أفضلها، فيقول:

"وأما النافع منها تمام النفع فهو العقل الموزون المطبوع بنور هداية الله تعالى. وهو اللب الذي وصفته حديثاً، والعقل يعبر به عن العلم على وجه المجاز في سعة اللغة، لكن أولو الألباب هم العلماء بالله، وليس كل عاقل عالماً بالله، وأما كل عالم بالله فهو عاقل.

قال الله تعالى: ((وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ))، والعقل له أسماء آخر يسمى حلماً ونهى وحجراً وحجى.

قال الله تعالى: ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى))، وقال: ((هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرِ))، وقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم: "ليلني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم".

وقد قيل إن العقل يعقل النفس عن متابعة الهوى كما يمنع العقل الدابة عن مرتعها ومرعاها، والعقل اسم غير متبدل، وهو اسم عام، ولا يستعمل تصريف هذه الأسماء إلا منه، يقال: عقل يعقل عقلا فهو عاقل وذلك معقول عنه.

وقال الله تعالى: ((إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)) وهو أن يعقل عن الله أمره ونهيه ومواعظه ووعدته ووعيدته ويفهم مراده في الأشياء على قدر ما يوفقه ويكشف له من تعظيم أمره واجتناب مناهيه، وهذه كلها لا توجد إلا بلطف الله وحسن نظره إليه، فيفضله على غيره باللب الموصوف والنور المعروف، وهو فقيه في أصول الدين وفروعه".

الخاتمة والتوصيات:

جاءت هذه الورقة لغرض لفت النظر إلى جهود أئمتنا في بيان حقيقة العقل واتساع كلامهم وأبحاثهم المتعلقة به، وكون ذلك النور الذي أودعه الله تعالى بني البشر ورتب على ذلك تكليفهم وابتلاءهم من الأمور الشريفة التي لا بد من الاعتناء بها وحفظها وتقويتها في حياة الأفراد والمجتمع.

وأنه لا غنى لطالب العلوم الإنسانية عموماً وعلوم الشريعة على وجه الخصوص من أن يشغل البحث في العقل ومسائله حيزاً من دراسته ونظره.

ويمكن تلخيص عدد من التوصيات العملية المتعلقة بهذه الورقة، وهي:

- ١ - إيلاء البحث العقلي مكانته في الدروس الشرعية المختلفة، فيحسن لفت نظر الدارسين إلى القواعد العقلية المنبثة في العلوم كلها حتى ما العمدة فيه على النقل والرواية، فإن العقل ركيزة أساسية في الاستدلال والتصرف والتفريع فيها.
- ٢ - الاهتمام بتزكية العقل بواسطة المعارف الدينية الحقة، والأعمال الصالحة المبرورة، والتوصية بذلك في أوساط المجتمع المختلفة من حيث إنه خصيصة النوع الإنساني.

٣- التوجه الحثيث نحو كتابة الأبحاث والدراسات الجامعة بين الفلسفة والكلام والعرفان مما يقتضي ضبط نظريات المعرفة، ومن أهم مباحثها حقيقة العقل ومدر كاته، فيوصى بالعناية بهذا البحث والتنويه بأهميته وأولويته.

٤- الرجوع إلى النصوص العالية التي كتبها العلماء المحققون والصوفية العارفون من المهمات التي لا ينبغي التقصير فيها لطلاب العلم والباحثين، وفيها منابع ثرة لكثير من الأبحاث المفيدة والمطالب العلمية النافعة.

اللهم ارزقنا من العقول أوفرها، ومن الأذهان أصفها، ومن الأعمال أزكاها، ومن الأخلاق أطيبها، ومن الأرزاق أجزلها، ومن العافية أكملها، ومن الدنيا خيرها، ومن الآخرة نعيمها، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

